الفردانية والتماسك الذاتي داخل الأسرة الجزائرية

- دراسة نقدية –

د.بوجمعة كوسة - جامعة سطيف2–الجزائر

الملخص :

يتوقع خبراء الدراسات المستقبلية أن يصل العرق البشري والحضارة الإنسانية إلى نقطتين آحاديتين في المستقبل القريب: النقطة الآحادية التكنولوجية، والنقطة الآحادية البشرية التى ستكون بديلا للحياة الاجتماعية والاقتصادية الحالية. فإذا كانت حالة التفكك الأسري مردها بالأساس إلى بزوغ الفردانية، فإن التوجه الجديد الذي مس الدور الأسري صنعته التغيرات التكنولوجية وإفرازاتها القيمية. كما أن هذا التنبؤ مستنبط من التجمعات المؤقتة كأماكن العمل، إلا أننا نشهد تمدد الظاهرة وانتشارها داخل الأسر بصفة أكثر وضوحا في العقد الأخير.

Résumé :

Les experts des études à venir envisagent que la race et la civilisation humaines vont atteindre deux points uniques au future proche: le point unique technologique et le point unique humain qui sera le substitut de la vie sociale et économique actuelle. Si la désintégration de la famille a pour origine l'apparition de l'individualité, la nouvelle tendance qui a touché le rôle de la famille est le résultat des changements technologiques et ce qu'ils ont provoqué au niveau des valeurs. Ainsi que cette prévention est issue des rassemblements temporaires tels les lieux de travail, cependant, nous connaissons le prolongement de ce phénomène et son épanouissement dans les familles d'une manière plus claire dans la dernière décennie.

مجلة التغير الاجتـــــماعي ــــــــــــ العـــــدد الثاني

مقدمة:

إذا كان هذا الموضوع يستحق الدراسة من عدة زوايا(اقتصادية، سوسيولوجية، نفسية، ثقافية...) فإننا نخصه بالدراسة من زاوية سوسيوتنظيمية، من خلال تسليط الضوء بالدراسة والنقد على النقاط التالية:

-الأسرة وتطورها عبر التاريخ.

-الثورة الصناعية ونمو الفردانية.

-الاحتياجات الأسرية والحاجة إلى العمل.

-التجمعات الصناعية وانهيار منظومة الأدوار التقليدية للأسرة.

-الأدوار التقليدية والحالية للأسرة الجزائرية.

-الأنسنة والتماسك الذاتي داخل الأسرة الجزائرية.

ففي العقد الأخير من القرن الماضي؛ كثيرا ما كنا نقرأ مقالات تخص حالات التفكك التي وصلت إليها الأسر الغربية نتيجة تغير الأدوار والفردانية، والتكنولوجيا وعوامل أخرى، وكنا نعتقد أن أسرنا أكثر حصانة من الأسر الغربية نظرا لعدة عوامل منها ما هو ثقافي ومنها ما تعلق بالنسق الاجتماعي والجندري، ومنها ما تعلق بالتخلف التكنولوجي لمجتمعاتنا مقارنة بالمجتمعات الغربية.

إلا أن تسارع الأحداث في المجتمعات المتخلفة ككل والمجتمعات العربية والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص والتغيرات الحاصلة في العقدين الأخيرين من القرن الواحد والعشرين، خاصة مع امتلاك الجميع لوسائل الإعلام الجديد، أظهر عدم صدق اعتقادنا، فما لبثت عدوى التفكك الأسري والمجتمعي أن انتقلت إلينا بسرعة البرق، فإذا كان للغرب الآلية القانونية والعلمية والتنموية الكفيلة بالتحكم بعدم انفلات الأمور، فإننا حتما لا نمتلك تلك الآليات الوضعية الدفاعية، مع افتقادنا لما كنا نمتلكه من آليات التصحيح الذاتي والمجتمعي التي زالت وللأبد.

1- الأسرة وتطورها عبر التاريخ (قراءة مقارنة):

شهدت الحضارات المختلفةأنماطاً من الأسر. وثمة ما يعرف بنمط الأسرة البدائية، وهو نمط لا يحكمهنموذج واحد محدد، فقد عرف النماذج الطوطمية والتعددية والواحدية والأمويةوالأبوية، لكن يرجح معظم الانثروبولوجيين الآخذين بنظريات التطور أن النمطالبدائي للأسرة كان أموياً وطوطمياً.

وقد كان للعرب قبل الإسلام وللرومان واليونان القدماء نمطٌ من التنظيمالأسري يدعى «العَصَبَة»، يأخذ نموذج الأسرة الأبوية الموسّعة التي يكونفيها لعميد الأسرة سلطان مطلق على زوجاته وأبنائه وأعضاء أسرته الآخرين منعبيد وموالٍ وغيرهم. ومع أن القرابة الدموية من جهة الذكور هي أساس اللحمةالأسرية فإن لنظام الادعاء والخلع شأناً كبيراً في بناء الأسرة. تؤلف هذهالأسرة جماعة مكتفية ذاتياً وهي الوحدة الرئيسة للعمل والإنتاج والاستهلاكفي المجتمع.

أما الأسرة العربية الإسلامية التقليدية فهي أسرة موسّعة تقوم على القرابة الدموية والنسب الأبوي والسلطة الأبوية، وهي أسرة واحدية في الغالب وقدتكون تعددية من جهة الزوجات، يرث فيها الذكور والإناث أبويهم بأنصبةمختلفة.

وتعدّ الأسرة الصينية التقليدية نموذجاً للأسرة الممتدة، فهي أسرة أبوية النسب، والسلطة تضم ثلاثة أجيال أو أربعة، تنتقل الملكية فيها من الأب إلىأبنائه الذكور من دون الإناث بعد وفاته، فيقتسمونها بالتساوي ويختص كل منهم بنصيبه. وهي أسرة واحدية الزواج، لكن الزوج يقتني ما يشاء من المحظيات.

وينظر إلى الأسرة الهندية التقليدية على أنها نموذج جيد للأسرة المشتركة،فالملكية فيها مشتركة بين الأبناء المتزوجين وهي أسرة واحدية وأبوية.

وللسلافيين في أوربة الشرقية نمط حضاري متميز يسمونه «زَدْروكا»أي الأُخوّة، وهي أسرة موسعة واحدية الزواج ذات سلطة أبوية تنتقل فيها رئاسةالأسرة بعد الأب إلى الابن الأكبر.

تشترك معظم الأنماط الحضارية التقليدية الآنفة الذكر ـ ماعدا الأسرةالبدائية ـ بكون الأسرة فيها أبوية، موسعة، كبيرة الحجم، ذات قرابة دمويةتركّز على الجانب الأبوي، شديدة التماسك، تولي الأطفال الأهمية القصوى، وتنتقل فيها الملكية (أو الميراث) بصورة عمودية أي تنتقل من الأسلاف إلىالأخلاف.

أما الأنماط الحضارية الحديثة المعاصرة للأسرة فتتبع الشكل النووي بصفةعامة، وتنأى بالأسرة عن استبدادية سلطة الفرد، وتحدّ من تسلط أحد الجنسينأو هيمنة الكبار على الصغار، وتشجّع الحجم الصغير للأسرة والعدد القليل منالمواليد فيها، وتمضى الملكية فيها فى مسار أفقي منتقلة من أسرتي أهلالزوجين إلى الأسرة الجديدة.

ويتصف النمط الغربى الغالب اليوم فى أوربة وشمالى أمريكا، فضلاً عن الخصائصالسابقة بكون الأسرة واحدية، تعاقدية، ثنائية خط القرابة، تركّز على القرابة الزواجية، وضعيفة الصلات بالقرابة التى هى أبعد. ويتصف النمط الأمريكى اللاتينى المعاصر بغلبة أسرة الزواج العرفى، أي أنها تحررت منالقوانين، وتقلّص فيها دور الأب، وتراجعت مسؤولياته، وتحمّلت الأم مسؤولية عظمى في تربية الأطفال.

أما الأسرة العربية المعاصرة، فهى تتجه إلى أن تصبح أسرة نووية مع احتفاظها بتماسك أعضائها وروابطها القوية بالقرابة الدموية والزواجية. غير أن هذه الروابط أخذت تضعف مع الأقرباء أو الأنسباء الأبعدين وتزداد قوة مع الأدنينمنهم ولاسيما أعضاء أسرتي الزوجين الأصليتين، ولكنها لم تتوقف عن إعلاءمنزلة الزواج وايلاء أهمية كبيرة للأطفال ومنح الرئاسة للرجال؛ وان سمحت للنساء بالعمل خارج المنزل والمشاركة بالنشاطات الاجتماعية المختلفة. وقدلا تكون هذه الخصال انتقالية أو مرحلية وعابرة، كما يرى من يسلّم بحتمية انتصار النمط الأوربى الغربى، فقد ظلت الأسرة اليابانية محتفظة بخصائصها القومية الأساسية على الرغم من انفتاح اليابان الحضاري على الغرب، ومضاهاتها له في مستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي.

ولا توجد حتى اليوم نظرية علمية شاملة تصف بدقة تطور الأسرة أو تقدّمتفسيراً له، مع أن محاولات كثيرة جرت انصرف قسم كبير منها إلى التكهن حولأصل الأسرة ودراسة

انتقالها من نمط إلى آخر، ولاسيما الانتقال من الأسرةالممتدة المشاهدة في المجتمعات الزراعية والريفية إلى الأسرة النوويةالمشاهدة في المجتمعات الصناعية الحديثة. وتكفي هنا الإشارة إلى بعضالقضايا الأساسية.

ما من شك في أن تغيرات جوهرية ألمّت بالأسرة على مدى التاريخ. وقد تدعى هذهالتغيرات تطوراً مادامت تمضي نحو تعزيز قدرة الإنسان على التكيف مع واقعه،وتساير تغيرات أخرى في هذا السبيل. ومع أن الأسرة سلكت في تطورها مساراتعدة لا مساراً واحداً حتمياً، فإن اتجاهاً عاماً واحداً يكاد ينتظمهاجميعاً تُحدَّد معالمه كما يلي:

إذا استبعدت حال القطيع الفوضوي الابتدائي للبشرية التي سلمت بها بعضالنظريات، مع افتقارها إلى البيّنة التاريخية المناسبة والحجة المنطقية السليمة، كان اتجاه التطور هو الانتقال من الأسرة الأموية إلى الأسرةالأبوية، والتحول من أسرة الزواج الجماعي إلى أسرة الزواج التعددي (التيمرت بمرحلتي تعدد الأزواج ثم تعدد الزوجات) فأسرة الزواج الواحدي. وثمة اتجاهات أخرى تمثلت بالانتقال من الأسرة الموسّعة إلى الأسرة النووية، ومن الأسرة المبنية على الروابط الدموية إلى الأسرة التي تركز على الروابط الزواجية، ومن الأسرة ذات الشرعية العرفية إلى الأسرة ذات الشرعية القانونية، إضافة إلى تغيرات الوحدة المعيشية التي ذُكرتْ آنفاً.

تصور بعض النظريات الأسرة بأنها تسير في تطورها نحو تناقص وظائفها وتراجع أهميتها، ولكن هذا الاتجاه في البحث يتجاهل سمة أساسية من سمات التطور هي ازدياد تعقيد الحياة الاجتماعية وتمايز وحداتها. وفي ضوء هذا الملمحالتطوري فإن الأسرة كانت عند المستويات الدنيا من التطور مندمجة في غيرهامن الوحدات الاجتماعية، فالأسرة والتنظيمات السياسية والاقتصاديةوالاجتماعية (حتى المجتمع نفسه) كانت كياناً واحداً غير متمايز، ثم قادهاالسير في معارج التطور (الذي جاء استجابة لحاجات فرضها التفاعل مع الشروطالمحيطية المختلفة) إلى التمايز في وحدات مستقلة (لكنها مترابطة) تؤدي وظائفها بفاعلية أكبر من ذي قبل. وقد رافق اتجاه التمايز المتزايد ازدياد عدد الولاءات أو الانتماءات الاجتماعية للفرد ثم كثرة الأدوار المسندة إليه. ويكون للتعقيد والتمايز المتزايدين وقعهما الكبير في الأسرة وماتواجه من مشكلات. ولما كانت الأسرة من أقدم الوحدات

الاجتماعية، أو بمكانت أصل كل تنظيم اجتماعي آخر والوعاء الحاوي للتنظيمات الأخرى، فقد بدتعملية التمايز الآنفة الذكر كأنها انسلاخ الوحدات الاجتماعية عن الأسرة، أيإن ما حسبته تلك النظريات تقلصاً لوظائف الأسرة وتراجعاً لدورها لم يكن غيرتوقفها عن قيامها بوظائف سواها وتوقف سواها عن القيام بوظائفها الأساسية.

أما العوامل المسؤولة عن تطور الأسرة فتكمن في تفاعلها مع محيطها الإنسانيذي الأبعاد الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية. لكنأسلوب تفاعلها، أي أسلوب تأثرها بالمحيط وتأثيرها فيه، يختلف باختلافالزمان والمرحلة التاريخية، فلم تبق للعوامل الاقتصادية الأهمية نفسها التيكانت لها في مراحل التطور السابقة، أي إن أهميتها تتناقص، في حين يزداد دور العوامل الاجتماعية والحضارية. ويعد هذا أحد مظاهر التطور لأنه يعنيالتحرر المتزايد للإنسان من التبعية للشروط الضرورية ومنها العواملالطبيعية والاقتصادية.

وتعزو الاتجاهات العالمية المعاصرة تطور الأسرة وما وصلت إليه إلى جملة عوامل أهمها: النهضة الصناعية والثورة الحضرية، والنقلة السكانية (ولاسيما توازن الخصب والوفيات عند مستوى منخفض)، والحراك الجغرافي النشيط للعمل،وتقسيم العمل المتنامي، والتطور الاجتماعي الذي يتجلى في تحسّن التعليم ومشاركة المرأة في العمل والنشاطات العامة خارج المنزل، ونمو خدمات الرفاهية الاجتماعية، والتغير السياسي المتمثّل بالدور المتعاظم للدولة وجهازها الإداري، والاتجاه نحو الديمقراطية والمشاركة الجماهيرية في الحكم، واشاعة الحريات العامة، ونمو النزعة الفردية، والتحرر النسائي، وانتشار القيم الحديثة وتحديد النسل، علاوة على التقدم العلمي والتقني السريع وتأثيره النامي داخل المنزل وخارجه.[1]

2- الثورة الصناعية ونمو الفردانية:

لقد تحكمت الإيديولوجية الدينية في حياة المجتمعات والأسر لقرون طويلة، وبقدر ما خدم ذلك التماسك الاجتماعي والأسري للمجتمعات من منطلق وحدة الاعتقاد والمآل، بقدر ما أزيحت الإيديولوجيات الأخرى من فرض نفسها كعوامل مهمة في المعادلة

الاجتماعية والأسرية، ويأتي العامل العلمي بما يحتويه من قوانين ومسلمات ومناهج كأحد العوامل التي فرضت نفسها على الساحة الأوروبية ثم على الساحة العالمية كموروث إنساني مشترك بإمكانه تصحيح عديد المبادئ والمعتقدات الخاطئة للشعوب. ولم يكن الأمر سهلا ولا هينا لإنضاج الاعتقاد بأهمية العلم، فلطالما مارس رجال الدين سطوتهم في أوروبا المسيحية أو البلاد العربية المسلمة واعتبرت العلوم الوضعية ضربا من السحر الزندقة تارة ومن العلوم التي تدخل صاحبها الردة والكفر تارة أخرى، لكن الثورة الفكرية التي حدثت في أوروبا بدايات القرن الخامس عشر مهدت لتغيير اعتقاد بعض المجتمعات الأوروبية، وليس العربية نحو أهمية العلم لفرض الهيمنة العسكرية ومن ثمة تكرس الاعتقاد أكثر بأهمية العلم لفرض الهيمنة الاقتصادية ثم الثقافية، فالتجاري الأوروبي الذي كان يحتكر التجارة الداخلية والخارجية وبعد تعاظم ثروته نتيجة اكتساحه أسواق المستعمرات والطلب المتزايد على المنتجات الأوروبية، لم يجد بدا لتلبية ذلك إلا من خلال إيمانه بأن العلم و الاختراع هو الحل، فكان التعاقد مع العلماء المخترعين، التاجر بأمواله والمخترع بأفكاره فتزاوج المال بالاختراع فكانت الثورة الصناعية، وحسب العارفين لم يكن المال ليحقق ثورة صناعية بدون علم ولم يكن العلم لينجح بدون دعم مالي، وكانت النتيجة نهضة فكرية وصناعية حققت نقلة نوعية على جميع المستويات، ليتعمق الاعتقاد لدى المجتمع الأوروبي أن العلم هو أنجع السبل لتحقيق التطور. فنشأت الصناعات والتجمعات السكانية الكبيرة المجاورة للمصانع، وتكونت المجتمعات الصناعية التي كانت نتيجة الصناعة وخدمة للصناعة.

وما لبث الأمر أن أفرزت الظاهرة الصناعية عدة مشاكل وأزمات وظواهر اجتماعية، سواء داخل المؤسسات الصناعية أو داخل المدن الصناعية، فالاغتراب والهجرة وتفاوت الأجور والصراعات، والاحتجاجات والجريمة وعلاقات العمل السلبية، كلها أمور عجلت بظهور الفردانية والتي تعني مسؤولية الشخص عن نفسه فقط، سواء في العمل أو العيش أو السكن... لتختزل في المقولة المشهورة:" كل واحد لنفسه ورب للجميع "chacun pour soi, dieu pour tous". لقد ارتبطت الفردانية بالتوجه المادي للأفراد، ارتبطت بتعقيدات الحياة الاجتماعية التي فرضتها الثورة الصناعية، ارتبطت بالأوضاع المزرية للكثير من الفئات الاجتماعية، كل ذلك دفع بأن يكون كل واحد مسؤولا

عن نفسه حتى يكون قادرا على تحمل الأعباء المرتبطة به كشخص، على أن لا يتحمل هموم وأعباء الآخرين. ولا يختلف الأمر إذا مشينا مع التيار الآخر الذي يربط ظهور الفردانية بالحرية الفكرية وبالنظام الرأسمالي والذي من أهم مبادئه " دعه يعمل يعه يمر" بمعنى حرية الممارسة الاقتصادية على المستوى الفردي، لأن مصلحة المجتمع تتحقق حينما تتحقق مصلحة الأفراد.

3- الاحتياجات الأسرية والحاجة إلى العمل:

فحاجات الإنسان متعددة ومختلفة منها ماهو بيولوجي ومنها ما هو اجتماعي ونفسي، منها ماهو فردي ومنها ماهو جماعي، هذه الحاجات في تطور مستمر تتميز في مجموعها بتنوعها وقابليتها للزيادة المستمرة. وبقدر ما ينجح مجتمع معين في إشباع عدد معين من الحاجات بقدر ما يوجد حاجات جديدة غير مشبعة. فالحاجة هي شعور بالحرمان يلح على الفرد مما يدفعه إلى القيام بما يساعد على القضاء على هذا الشعور ومن ثم يمكن إشباع الحاجة.

وتتميز الحاجات بقابليتها للإشباع. فاستخدام الموارد المناسبة يؤدي تدريجيا إلى زوال الشعور بالحرمان أي يؤدي إلى إشباع الحاجة، وتعتبر هذه الخاصية للحاجات من الأسس الأولية التي يقوم عليها العمل، ويترتب عنها ظاهرة هامة جدا ما يعرف بظاهرة تناقص المنفعة الحدية، ومعنى قابلية الحاجة للإشباع هو أن استخدام الموارد المناسبة يؤدي إلى تناقص الشعور بالحرمان وعلى ذلك فإن المنفعة التي يحققها الفرد تتناقص تدريجيا مع زيادة الوحدات المستخدمة من المورد المناسب لإشباع الحاجة. فالحاجات الإنسانية على النحو المتقدم هي المحرك الأساسي للنشاط الاقتصادي[2]، ولم يعد الإنسان يبحث عن تحقيق الحاجات الأولية فحسب، بل إن الكثير من الحاجات أصبحت تفرض نفسها كحاجات ضرورية تتماشى مع المتغيرات التكنولوجية والحياتية، فوسائل الاتصال المواصلات كالسيارة ووسائل الاتصال كالهاتف أصبحت ضرورة ملحة، ليس للفرد فحسب بل لجميع أفراد الأسرة، وهو الأمر الذي يحتاج إلى مزيد من المال لتلبية تلك الحاجات، فيجد الشخص رب العائلة نفسه مدفوعا للبحث عن مصادر أخرى للدخل، وهي أمور دفعت بخروج

المرأة للعمل أملا في مساعدة الزوج في تلبية حاجيات الأسرة المتزايدة، وبعد ذلك بدأ الدفع بالأبناء للعمل لتلبية حاجياتهم، أو خروجهم للعمل بإرادة منهم لتلبية حاجياتهم التي ربما عجز الأب عن تلبيتها، ومن هنا زاد اعتماد الفرد على نفسه بدل الاعتماد على فرد واحد هو في الغالب الأب الذي أصبح عاجزا عن تلبية كل متطلبات الأسرة.

4- التجمعات الصناعية وانهيار منظومة الأدوار التقليدية للأسرة:

إن الطرح التاريخي لتشكل المجتمعات الصناعية الذي ارتبط بالثورة الصناعية، والذي كان من الأسباب المباشرة لبروز الفردانية، لم يقتصر على أوروبا فحسب، فجزائر الاستقلال وخلال العقد الثاني منه، شهدت تشكل تجمعات سكانية كبرى هيأت الظروف لنشأة مدن صناعية كبرى على غرار مدينة سطيف وسكيكدة وأرزيو وورقلة...والتي كانت في السابق مدن صغيرة مقارنة بمدن لها تاريخ حضاري مثل قسنطينة وبسكرة وبجاية، فتلك المدن نشأت وتمددت بجوار المصانع الكبرى التي شيدتها الدولة الجزائرية بداية سبعينيات القرن الماضي، بتركيبة سكانية كانت مزيج بين العديد من سكان الجزائر(القبائل، الصحراء، الحضنة، الأوراس...) أين وفرت لهم جميع متطلبات الحياة المدنية، من مرافق عامة وسكن ونقل، فانتقلت الكثير من الأسر للعيش بمفردها بعد أن كانت ولوقت قريب تعيش في شكل أسر ممتدة (عائلة)، من جد وجدة وأعمام، حيث يمارس الجد سلطته القيادية في تدبير شؤون الأسرة ماديا واجتماعية وتربويا دون أن يكون لأحد حق الامتناع أو الاحتجاج ولا حتى الانسحاب، فكانت الأسرة في شكلها التقليدي(الممتد) تمارس سلطة الضبط على جميع أفرادها ذكورا وإناثا، كبارا وصغارا، عزابا أو متزوجين، هذا مع تميز الطابع الريفي للمجتمع الجزائري قبل وبعد الاستقلال، بمعنى أن الاقتصاد كان ذو طابع إقطاعي معاشي، كما أن العمل كان لم يخرج عن نطاق الفلاحة والزراعة وغالبا ما يكون بدون أجر لاعتبارات ترتبط أن الأفراد كانوا يعملون في أرضهم التي غالبا ما يقتاتون من محاصيلها في تلبية حاجياتهم. إلا أن توفر فرصة العمل في المصنع مع تهيئة الظروف للسكن الفردي مهد لانشقاق الأسرة الممتدة، حيث التحق الأبناء رفقة زوجاتهم وأولادهم للعمل في المصانع، وبذلك بدأت الأسرة النووية في التشكل شيئا فشيئا. لقد هيأت الظروف السياسية والاقتصادية كل سبل الاستقرار في التجمعات الجديدة

ولو بشكل مؤقت، حيث كان أجر الأب العامل كافيا لتلبية حاجيات أولاده البسيطة بساطة المجتمع الجزائري كافة في تلك الحقبة، إلا أن الأمور لم تدم طويلا، وأصبحت تلك التجمعات السكانية الكبيرة غير المتجانسة من حيث التركيبة السكانية بمثابة قنبلة موقوتة، انفجرت في شكل ظواهر اجتماعية خطيرة كالجريمة والسرقة والاعتداءات...وقد ساهم في كل ذلك وصول البلد إلى الأزمة الاقتصادية بداية 1986 أين انخفضت أسعار البترول لتصل إلى 04 دولارات للبرميل، وهو ما جعل كل المشاكل تطفو على السطح دفعة واحدة. إلا أن تجاوز الأزمة بفعل انتعاش أسعار البترول أفرز تبعات من نوع آخر أهمها الانفتاح الاقتصادي وتبني نظام اقتصاد السوق، وهو ما جعل الجزائر وأفراد المجتمع يتفاعلون مع المجتمعات الأخرى اقتصاديا وثقافيا، وبدأ تدفق البضائع والسلع التي لم نكن نعرفها ولا نسمع بها، وكان للإعلام دورا كبيرا في الترويج لذلك، وبذلك زادت حاجيات الأفراد لإشباع رغباتهم من تلك السلع، الأمر الذي زاد من الحاجة للعمل بحثا عن أموال لتلبية الحاجات، ليصل المجتمع الجزائري إلى النقطة التي وصل إليها المجتمعات الأخرى، فالكل يجب أن يعمل لتلبية حاجياته، وهي نوع من الفردانية العرجاء، كون مفهوم وفكرة العمل وفلسفته وقيمه لم تنضج بالمعنى الصحيح لمسايرة التقدم والنهضة للأمم، بقدر ما ارتبطت فقط بتلبية الحاجيات الكمالية ذات الطابع الاستهلاكي.

5- الأدوار التقليدية والحالية للأسرة الجزائرية:

5-1-تقاذف الدور التربوي بين الأسرة والمدرسة:

لم تعد الأسر تتعهد تربية أبنائها على آداب السلوك الاجتماعي والبيئي السوي، سواء تعلق الأمر في الاتصال بالآخرين توقير الكبير واحترام الصغير أو تعلق الأمر بنظافة المحيط وتشجيع المبادرة ...والدفع بهذا التعهد والدور للمدرسة التي عليها القيام بهذه الأدوار، وهي أدوار تربوية بالأساس مرتبطة بالتنشئة ومرتبطة بالتنمية البشرية. غير أن الكل أصبح يدرك أن المعلم في المدرسة لم يعد مربي كما كان في السابق، وهو دور نبيل كان يكمل الدور التربوي للوالدين ويدعمه أو يقويه أو يصححه وفق إطار مرجعي ثقافي وديني واجتماعي متفق عليه بطريقة ضمنية وعفوية، فكان المعلم بمثابة الأب الثاني للتلميذ والمعلمة بمثابة الأم

أيضا له، خاصة وأن ساعات التدريس كانت تشتمل على أكثر من خمس ساعات يوميا على مدار ستة أيام كاملة وهي مدة كافية لأن يتعايش التلميذ مع الطفل كأسرة ثانية ليتلقى آداب تربوية إضافية. إلا أن متغيرات القرن الواحد والعشرين، والمكاسب التى حققتها النقابات التربوية خاصة ما تعلق منها بتقليص الحجم الساعى للتدريس وتقليص أيام العمل من ستة أيام إلى خمسة أيام، وانسحاب المعلم من الدور التربوي واقتصاره على الدور التعليمي التلقيني لاعتبارات مادية وأخرى اجتماعية تصب أغلبها في كثرة الأعباء الاجتماعية لدى المدرسين، والنتيجة أن الأسرة تركت الدور التربوي للمعلم اعتقادا منها أنه لا يزال مربي، هروبا من تحمل الدور التربوي باعتباره عبء إضافي، والمدرسة تركت أيضا الدور التربوي باعتباره أنه دور الأسرة وليس دور المدرسة واعتباره عبء إضافي يجب تركه، فالكل أصبح يبحث عن تخفيف الأعباء الاجتماعية بما فيها الدور التربوي. كما أن فاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن أن يصلح فعلا تربويا من أب أو معلم وهما يفتقدان القيام بالسلوك الصحيح على المستوى الشخصي فما بالك أن يجعل من نفسه نموذجا لغيره، وهو ما يجب أن يكون باعتبار أن الفعل التربوي يكون بطريقة التقليد تارة ويكون بطريقة المحاكاة والنموذج تارة أخرى. بل أصبحت بعض السلوكيات السلبية التي يقوم بها المعلم في المدرسة أو رب الأسرة سلوكيات تتناقض مع ما يجب أن يكون، فقد يرمي الأب القمامة في الشارع أو يعتدي على مساحات خضراء، أو معلم يحرص على تجنب العنف في المناقشات والمؤتمرات ويمارسه مع التلاميذ ومع أولاده أو يتلفظ بألفاظ بذيئة والأمثلة كثيرة وعديدة وصلت إلى ممارسات غير أخلاقية لدرجة الاستنفار العام خوفا من شذوذ بعض الأولياء أو بعض المدرسين.

5-2-تغيرات شملت أنماط اللعب:

كثيرا هي الألعاب التي كنا نلعبها ونحن صغارا، منها ما ارتبط بالذكور ومنها ما ارتبط بالإناث، ومنها الألعاب التي تشمل الجنسين وتلعب اختلاطا بين الجنسين سواء داخل المدرسة أو خارجها، هي ألعاب هادفة أحيانا، وتربوية أحيانا أخرى، وأخرى لا معنى لها سوى الجري والاختباء... وما هو ملاحظ أن ألعاب الأمس لم تكن مستوحاة من أفلام التلفزيون الذي لم يكن له وجود في الكثير من البيوت، وحتى وجوده كان مرتبطا بفترات

البث القليلة التي لا تتعدى سويعات فقط في اليوم، لكن الانفجار الإعلامي الأخير، أين أصبحت القنوات لا تتوقف عن البث، قنوات مختصة في أفلام الأكشن، وأخرى في أفلام الرعب، وأخرى في الأفلام الرومنسية، وأخرى في الأشرطة الوثائقية، وأخرى متخصصة في أغاني الأطفال، وأخرى في الرسوم المتحركة، وما يجمع كل هذه القنوات هو البحث عن إبقاء المشاهد جالسا أمامها أطول مدة من الوقت، وما يقع من ذلك في تأثيرها على قيم المتفرج، بشكل مقصود أو غير مقصود.

إن المتتبع لمختلف ألعاب الأطفال داخل وخارج البيت يجدها متسمة بالعنف الجسدي، سواء تعلق الأمر بالمبارزة أو الرشق بالأحذية أو الحجارة، وهي ليست ألعاب بقدر ما هي مجموعة سلوكات عنيفة ممزوجة بالمرح تارة والصدامات تارة أخرى، وكثيرا ما تنتهي بإصابات أو عراكات غير محمودة العواقب، يتدخل فيها الكبار دفاعا عن أكبادهم بطرق عنيفة أيضا.

فإذا كان اللعب هو متنفس الطفل، ورابط تواصلي اجتماعي مع أترابه في صف الدراسة أو الحي ...فقد أصبح في العقدين الأخيرين مجلبة للبلاء وللإصابات الخطيرة، ناهيك عن رفقة السوء وما ينجر عنها.

وما أركز عليه في هذا العنصر هو تغير نمط اللعب، لقد شدني حقا ملاحظة طابع العنف لدى الأطفال عند لعبهم سواء في محيط المدرسة خلال فترات الدخول والخروج من الدراسة، أو في الشارع بصفة عامة، وهي ظواهر اجتماعية لم تكن موجودة إلا بدرجة قليلة للغاية قبل عقدين من الزمن، فكيف يمكن تفسير ذلك من جهة؟ وما هي العوامل التي ساهمت في انتشار العنف لدى الأطفال حتى في اللعب من جهة ثانية؟

فبقدر ما ساهمت وسائل الاتصال المرئية في انتشار ظاهرة العنف عند الأطفال عن طريق عرض مشاهد العنف في الأفلام العادية وأفلام الرسوم المتحركة، بقدر ما يمكن تفسير سلوك الطفل بأنه سلوك يحاكي سلوك الوالدين، ولا شك أن الكثير من الآباء يمارسون العنف اتجاه أولادهم واتجاه زوجاتهم واتجاه الآخرين، ويزداد الأمر تعقيدا حينما نربط ذلك بتعقد ظروف الحياة ومتطلباتها وانشغالاتها، فلم يعد الأب يراقب سلوك أبنائه

ويحرص على ذلك كل الحرص، سواء داخل البيت من خلال ما يعرض عليهم من أفلام، أو خارج البيت من خلال احتكاكهم وتواصلهم بالآخرين.

3-5-تغيرات شملت أنماط الأكل:

تزيد نسبة السمنة في المجتمع الجزائري حسب المختصين عن 30% وعند فئة الأطفال ما يزيد عن 15% حسب البروفيسور "زكية عراضة" رئيسة مصلحة طب الأطفال بمستشفى بارني بالعاصمة، وهي نسب لم تكن مرتفعة لهذا الحد في الماضي، وانما زادت بصورة مذهلة ومفاجئة فقط في العقدين الأخيرين، وهو ما دفع المختصين بدق ناقوس الخطر، على اعتبار أن هذه الظاهرة هي أيضا عالمية وبمعدلات مختلفة لكنها تشترك في درجة الخطورة، ويرجع المختصين ذلك في المقام الأول إلى تبدل نمط التغذية وقلة الحركة عند الأطفال، خاصة وأنهم يمضون أوقات طويلة جالسين إما في مقاعد الدراسة أو أمام التليفزيون[3].

كما أن ظاهرة خروج المرأة للعمل، شتت الدور التقليدي لهذه الأخيرة، أين كان دور المرأة الأساسي يقتصر على خدمتها ورعاية شؤون زوجها وأولادها، والقيام على كل ما تعلق بأكلهم وملبسهم وتنشئتهم...وفعلا لم يكن هناك أي تقصير في تأدية هذا الدور، فكبر الأطفال وصاروا رجالا، وكبرت الفتيات وصرن نساء وأمهات، فكانت التكفل على أكمل وجه رغم ثقل ذلك الدور لما يكفله من مهام عديدة حتى وان تراءى لنا أن الحمل بسيط، لكن من خلال المقارنة ؛ وفي زمن خرجت فيه المرأة للعمل وما نتج عن ذلك من تغيرات اجتماعية وأسرية هائلة ندرك أهمية الدور الذي كانت تلعبه المرأة في البيت. ونسلط الضوء هنا على حرص المرأة الأم على إطعام أولادها بطعام يتم طهيه بيديها في كل وقت من أوقات الوجبة الغذائية، حتى وان كان قليلا أو فقيرا من حيث التنوع الذي نراه على موائد العائلات في الوقت الحالي، وما لذلك من تفسيرات تصب في معظمها على القدرة على التحكم في زمام الأمور والرضا بما هو قليل، وفوق كل ذلك سعادة وجو من التلاحم الأسري.

بخروج المرأة للعمل، أصبحت غير قادرة على توفير وجبة ساخنة لنفسها تطبخها بيديها، وان تسنى لها الأمر فليس دائما بل نادرا، ويزداد الأمر تعقيدا بتعداد عدد الأطفال، وبعد مكان العمل عن البيت، والمرأة الأكثر حضا من هؤلاء هي التي لا تزال في علاقة ودية مع أم زوجها، حتى وإن كانت علاقة ودية مصلحية من أجل مسك الأولاد.

الأمر الآخر هو عدم التحكم من قبل الوالدين في زمام الأمور، فكثير من أطفال اليوم يرفض مشاركة الآخرين نفس الطعام، لتضطر الأم لتحضير أكثر من نوع من الطعام، سواء كطعام مجهز من قبل الأم أو يتصرف الطفل(خاصة إن كان مراهق) تصرفا آخر فيشتري طعاما من مطاعم الأكل السريع أو يأكل هناك، وهي ظاهرة تفشت كثيرا في السنوات الأخيرة.

أمرا آخر لابد من الإشارة إليه، وهي أن مطاعم الأكل السريع بكثرة أعدادها أصبحت مليئة بكل الفئات العمرية لا سيما النساء، وهي ظاهرة حديثة لا تزال تحت الملاحظة في المجتمع الجزائري، لكن النتائج بدأت تظهر سريعا، وهي مشكلة السمنة، التي ارتبطت بتبدل الأدوار الأسرية والجندرية من جهة، وارتبطت بفردانية الأشخاص الذين أصبحوا يأكلون متى وأينما شاءوا من جهة أخرى، وهو أمر لم يكن مسموحا به من قبل الأسرة، فالكل يأكل على طاولة واحدة، وهو ما يؤشر على تبدلات سلبية حصلت وحاصلة في المناخ الأسري للأسرة الجزائرية.

5-4-تغيرات شملت تمضية أوقات الفراغ:

رغم أن التغطية الخاصة بالأنترنت لم تصل إلى المعدلات العالمية ولا حتى مقارنة بالدول الشقيقة كالمغرب وتونس، إلا أن وسائل الإعلام الجديد بدت الوسيلة الأكثر رواجا في الآونة الأخيرة بين الفئات الشبابية، بل وأصبح الفايسبوك يستهوي الكثير من الناس لولوج العالم الافتراضي وتكوين صداقات حقيقية تارة وكاذبة ومزيفة في كثير منها، وحسب الكثير من الدراسات فقد أصبح الوقت المستغرق في الانترنيت عامة وفي الفايسبوك خاصة يستهلك جل وقت الفراغ عند المشتغلين على النت، بل أكثر من ذلك أن الكثير يستغل أوقات العمل في المحادثات عبر الفايسبوك، في ظاهرة مرضية تنم عن حالة من

الإدمان تجاوزت تمضية وقت الفراغ للهيمنة على الوقت كله. وهو ما جعل الكثير من المختصين يهتمون بالظاهرة ويسلطون الضوء عليها عبر الدراسات والأبحاث والملتقيات. ويتجلى دور الأسرة هنا في إهمالها للدور الرقابي المنوط بها، فلا أحد ينكر دور الإعلام الجديد في قدرته على إدارة المعرفة باعتباره مصدر لها، لكن لا أحد ينكر المخاطر المنجلية في الادمان برمجيات هذا الإعلام الجديد التي ثبت أيضا ومن خلال دراسات ووقائع أنه هدم علاقات وزوجية وهدم أسر، وجلب الكثير من المتاعب، وجزء من المسؤولية يتحمله الوالدين، لتقصيرهما ليس في ربط البيت بالأنترنت، ولكن في مراقبة الأبناء لما يستعملونه من تطبيقات وبرامج قد تصبح بلاء عليهم في أي وقت من الأوقات.

ومن المتاعب التي يجنيها الأولياء وتتأثر بها العلاقات الأسرية هي الرفقة السوء، كون الكثير من الأبناء ذكورا واناثا قد يصاحبون رفاقا سيئين، ويمضون أوقاتا في أماكن بعيدة عن رقابة الوالدين، ولعل جريمة القتل التي هزت مدينة باتنة قبل عيد الأضحى، حينما قتل الأب ابنه بسبب التحاقه المتأخر الدائم بالبيت.

6- الأنسنة والتماسك الذاتي داخل الأسرة الجزائرية:

قد ينظر الكثيرون إلى أن الأنسنة وما فوق الأنسنة Transhimanist نظرة تشاؤمية كونها محطمة للعلاقات الإنسانية والأسرية والعقائدية والقيمية، كما قد ينظر المتفائلون والمؤمنون فذكاء الإنسان نظرة مغايرة تماما، تؤمن بما هو حاصل نتاج التقدم التكنولوجي باعتباره واقعا فرض نفسه، وسيؤدي إلى تغيرات أخرى هامة تغير مجرى الحياة إلى الأبد، ولعل التلقيح الاصطناعي إحدى نتاج الأنسنة، فبعدما دقت الكثير من المنظمات العالمية ناقوس الخطر حول الدور المغيب للأب أواخر القرن العشرين واكتفائه بالدور البيولوجي، أين أصبحت الأسر الغربية ثنائية تتكون من أم وأبناء بدل من الأسرة الثلاثية (أب، أم، أبناء)[4] سواء كانت معلومة النسب أو غير معلومة النسب، أصبح الأمر أكثر رهبة حينما مكنت التكنولوجيا للأفراد رجالا ونساء بالحصول على أبناء دون الارتباط في علاقات زوجية ولا حتى جنسية، فالمرأة تستطيع الحصول على ولد عن طريق الزرع المباشر في الرحم، والأب يستطيع كراء رحم امرأة متى شاء خاصة في الدول

التى تسمح تشريعاتها بذلك(أغلبها دولا متخلفة)[5]، ولم يكن الأمر مفاجئا حينما باركت أغلب الدول الغربية الزواج المثلى بين الإناث مع بعضهن والذكور مع بعضهم، فى ظاهرة تبدو للوهلة الأولى أنها حالة من التفسخ والانسلاخ، لكن الواقع والتيارات الفكرية تدفع لفرض نماذج معينة من التفكير من الإنسانية من الأسر...عن طريق آليات أكثر قوة وفعالية، فالهندسة الوراثية استعمال العقارات الصيدلانية للأعصاب، العقاقير المحفزة، المعالجة بالخلايا الجذعية، المعالجة الجينية...كلها أمور تهدف للوصول إلى تحويل ذواتنا من الداخل على ما كانت عليه لتصبح أكثر قدرة وتحمل وذكاء، وتحويل علاقاتنا بالآخرين سواء بالسيطرة عن طريق الحروب بوسائل أكثر تطورا أو عن طريق الاحتواء، أو بالحديث بمنطق المصير المشترك للإنسانية وحقوق الإنسان ...وبالتالى سنتحدث عن حالات التفكك الأسري الحاصلة اليوم، على اعتبارها زمن يرمز إلى العفة والتماسك مقارنة بأوقات لاحقة لأجيال لاحقة.

الخاتمة:

تدعونا التحديات الراهنة خاصة ما تعلق منها بوسائل الاتصال الجديد الحرص أكثر على تربية أبنائنا، لكن ما تم طرحه من أفكار فى تحول أفراد المجتمع نحو المادية والفردانية أفرز نتاجا اجتماعيا آخر، أين كبر ذلك النشء الذي لم يحضى بالرعاية وهو النشء الذي يقوم بممارسات شنعاء يندى لها الجبين، ولا يمكن المواجهة عبر شرذمة قليلة من الناس التى وعت حجم التحدي الأسري مقارنة بالكثيرين الذين لم ولن يعوا ذلك.

المراجع والهوامش

---

[1]: http://www.forum.ok-eg.com/new.php?print=1&id=18431يوم 2016/10/30 على الساعة 22:00.

2: حازم الببلاوي،**أصول الاقتصاد السياسي**، منشأة المعارف، 1996، ص ص35-43

3: ص بورويلة،**ضحايا الوجبات السريعة**، 15%من أطفال الجزائر يعانون السمنة، جريدة الخبر، عدد2423 ليوم2016/10/23

4: كريستين نصار،**الأبوة المصادرة، سمة العالم المعاصر**، في مجلة" العربي" عدد 498، ماي2000،ص30.

5:برادن ر اللنبي وآخرون،**حالة الانسان الآلة**، ترجمة: حسن الشريف، المنظمة العربية للترجمة، 2013.